



وكان وداعاً مع يوسف الشيراوي

رحم الله يوسف الشيراوي واسكنه فسيح جناته وغفر له ولنا جميعاً، ان الله واسع الرحمة غفور رحيم. لقد كان تقاطعي مع الأستاذ يوسف الشيراوي محدود ولقاءاتي معه معدودة وكلها جاءت في سياق منتدى التنمية أبتدأ من عام ١٩٧٩م عندما كان الرجل وزيراً يملئ الدنيا ويشغل الناس في البحرين. وكان وداعها منذ شهراً بالتمام والكمال في اللقاء الخامس والعشرين لمنتدى التنمية عندما التقيت بالرجل الفاضل والوقور لقاءات حميمة يتسع الوقت فيها للأحاديث الشخصية والذكريات الجميلة والأفكار المجردة من ثقل المسؤوليات الرسمية وضغوطها، على البعد الشفاف من الإنسان المحجوب قسراً بداخلنا.

وقد كان اللقاء الاول عند ما كنت أقوم بدراسة حول أداء المشروعات العامة في دول المنطقة ودورها في التنمية الاقتصادية، وكانت تلك المشروعات العامة في ذلك الوقت هي المشروعات الاقتصادية الكبرى المعتبرة في المنطقة أبتدأ من شركات إنتاج البترول وصناعة التكرير والبتروكيماويات والألمنيوم والحديد، إلى الصناديق والأجهزة واحتياجات الأجيال القادمة التي كانت تودع فيها فوائض عائدات النفط وتستثمر من خلالها. هذا فضلاً عن الحصة الكبرى لملكية الحكومات في البنوك وشركات التأمين وشركات الاستثمار والمشروعات العربية المشتركة وحتى شركات الطيران والاستيراد والتصدير والمواشي. وبذلك كان يتوقف على أداء المشروعات العامة مستقبل التنمية الاقتصادية وتنوع مصادر الدخل ومستقبل بناء قاعدة اقتصادية بديله، فاستحقت من أبناء المنطقة عموماً ومن القائمين عليها خصوصاً اهتماماً خاصاً قاد فيما بعد إلى لقاء عقد في أبو ظبي أواخر عام ١٩٧٩م حيث أسفر اللقاء عن تأسيس منتدى التنمية، والذي التقيت الراحل العزيز يوسف الشيراوي عند نشأته وفي الاحتفال بمرور ٢٥ عام على تأسيسه في ١٤/١/٢٠٠٤م في البحرين.

عندما التقيت الوزير يوسف الشيراوي أول مرة كان أيضاً رئيساً لمجلس إدارة طيران الخليج إلى جانب إشرافه ومشاركته في مجالس العديد من المشروعات العامة. وكانت المقابلة حول كفاءات أداء طيران الخليج. وبعد ان طرحت عليه ما يرد على أداء الشركة من نقد دافع الوزير، فذكرت له أرقاماً وإحصاءات فما كان منه إلا ان طلب مني ان أتوقف عن تسجيل المقابلة على آلة التسجيل كي يكون حديثنا غير رسمي يسمح لتوضيح واقع الحال. وقال لي بحدة ان الذين ينتقدون مجلس إدارة طيران الخليج لا يدركون واقع الحال. فطيران الخليج يتلقى أوامره من خمس دول يصعب في كثير من الأحيان التوفيق بينها وتستحيل على العضو الذي يمثل الدولة في مجلس الإدارة ان يتنازل عن أوامره دولته لانه يحمل امراً لا يستطيع في الغالب مناقشته مع من أمره به. واسترسل في حديثه قائلاً ان الذي ينتقدون طيران الخليج لا يعرفون صعوبة إدارة شركة كبيرة مثلها في معطيات وظروف الإدارة في بلداننا. فهناك مئات الرحلات اسبوعياً والاف الموظفين وملايين الوجبات والى جانب ذلك وفوق ذلك هناك إدارة ٥٠٠ مضيقة من مختلف الجنسيات تتخذ الشركة من البحرين مقراً لهن. وعندما التقيته هذا العام وجدت نفسي أسئلة ما صعوبة إدارة ٥٠٠ مضيقة من مختلف الجنسيات ربما من باب الدعابة وتنشيط الذاكرة بالمقابلة.

وعلى عكس المقابلة السابقة للوزير الذي ملئ البحرين وشغل الناس والذي كان محاصراً بالمسؤوليات الرسمية وتبعاتها عام ١٩٧٩م، كان اللقاء هذا العام مع يوسف الشيراوي الإنسان البسيط الحميم في علاقاته المتواضع في صفاته المعني بهموم البحرين والمنطقة. فقد حضر الرجل الوقور جلسات اللقاء السنوي الخامس والعشرين كلها وكان يوم الخميس يوماً ملئاً بالجلسات استمرت من التاسعة صباحاً إلى التاسعة مساءً لم يغيب عن أي منها. وفي آخر جلسة جاء الرجل إليّ بصفتي منسق اللقاء

السني الخامس والعشرين، حاملاً ورقة ربما كان يريد ان تكون وصية لبلده وبلدان المنطقة التي أصبحت البطالة إحدى الظواهر الخطيرة فيها، وذلك بعد ان انتهت حلقة النقاش التي قدمها الدكتور حسين المهدي حول أهمية معالجة مشكلة البطالة وإمكانية تأسيس نظام تأمينات ضدها، وسلمني الورقة الوصية التي كتب فيها: البطالة (من تجربتي) : إذا قسمنا الوظائف إلى ١٠ فئات من عمال النظافة إلى الجراحين، الفئة ٢،١ لن تجذب المواطنين بوضعها الحالي: الفئة ٣ - ربما ربما تجذب بعض المواطنين: الفئات (٤،٥،٦) يتطلب إحلال المواطنين فيها الاهتمام بالتعليم الفني: الفئة (٧) الجامعيون نعم نستطيع إحلال الخريجين محل الوافدين ولكن ليسوا من هم في مستوى خريجي الجامعات الحكومية الراهنة في المنطقة: أما الفئات ٨،٩،١٠ سوف نحتاج إلى أجنب إلى جانب المواطنين فيها. وقد كانت هذه الريقة تعبيراً عن مواصلة الرجل الاهتمام بالشأن العام حتى عندما اصبح لا يقوى على الحديث ويضطر إلى كتابة ما يقول بعد حضور مرهق لم يعد يقوى عليه الجسم الضعيف مصداقاً لقول الشاعر "إذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام".

وفي اليوم الثاني كان اللقاء اجتماعياً على الغداء في بيت العم خالد السعدون في الرفاع بدعوة من الصديق جاسم خالد السعدون كعادته للمشاركة في اللقاء عندما يكون الاجتماع في البحرين. وفي هذا اللقاء كان يوسف الشيراوي الإنسان يملك الوقت والرغبة في تعويض ما فاته بسبب مسؤولياته الرسمية من لقاءات اجتماعية وكان متألقاً بسيطاً يحكي الذكريات ويعود إلى التاريخ ونحن نستمع إلى حديث الشيخ الوقور. وفي سياق إجابته عن معنى الشيراوي وكيف جاء الاسم قال ان الاسم اشتق من اسم شيره وهي بلدة على الساحل الشرقي للخليج مقابلة للإمارات على الساحل الفارسي يقطنها عرب فارس وعائلته جاءت من هناك. وحتى افتح الحديث معه قلت له هل سمعت مقولة "جبل شيره ما طوله، هذا زمان البطولة". قال نعم لان أهل شيره اخترعوا البطولة عندما تحولوا إلى بلدان يختلط فيه العرب والفرس وربما انتقلت منهم إلى الساحل الغربي للخليج في الإمارات وقطر والبحرين. وهنا سحت الفرصة فذكرته بمقابلتنا عام ١٩٧٩م وسألته السؤال الذي كان في نفسي ان أسئلة وهو ما الصعوبة في إدارة شؤون ٥٠٠ مضيغة في ذلك الوقت؟ فقال ضاحكاً، هل صحيح لم تفهم!! فضحك وضحكنا معه وكأننا نرى في الرجل يوسف الشيراوي الإنسان الطريف الشفاف الذي ربما حبسته مسؤولياته الرسمية الثقيلة عن كثير ممن عرفوه وحجبت عنهم ما في شخصيته من ظرافة ولطف. رحمه الله وأحسن مثواه إنا لله وإنا إليه راجعون.

علي خليفة الكواري

الدوحة ٢٠٠٤/٢/١١